المبحث الأول

التعريف بجزءي الملكة الفقهية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: التعريف بالملكة

المطلب الثاني: التعريف بالفقه

المطلب الأول: التعريف بالملكة:

وفيه فرعان:

الفرع الأول: الملكة في اللغة

الفرع الثاني: الملكة في الاصطلاح

الفرع الأول: المَلَكة في اللغة:

بفتح الميم واللام والكاف، مصدر مَلَكَ يَمْلِك مُلْكا ومِلْكا ومَلَكَة ومَمْلَكة ومَمْلُكة ومَلْكا، أي: احتوى الشيء قادرا على الاستبداد به.

يقال: أقر العبد بالمَلَكة، كما يقال: أقر بالمِلْك، وَيُقَال: طالتْ مَلَكةُ العَبْدِ، أَي: رِقُّهُ، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة سيئ

المَلَكَة»[١]، أي: الذي يسيء صحبة المماليك[٢]، وفي الحديث أيضا: «حُسْنُ المَلَكَةِ يُمْن»[٣]، وفي الأمثال: «الشرط أَمْلَك، عليك أمْ لك»[٤]، أي: أضبط وأثبت[٥].

وكافّة الأسماء والأفعال المتصرفة من مادة (ملك) تلتقي في دلالتها على قوّةٍ الشيء وتماسُكه، فمنها: المَلْك: ما ملكت اليد من مال وخَوَل[٦]، والمَمْلَكة: سلطان الملِك في رعيته، والمَمْلَكة أيضا: وسط الشيء، ومِلاك الأمر: ما يَعتمد عليه، ومَلَكْتُ الطعامَ: إذا أجدتَ عجنه فتماسك وقَوِيَ، ومَلَكَ الخِشْفُ[٧] أُمَّه: إذا قوي وقدر أن يتبعها،

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان إلى الخادم، برقم (١٩٤٦)، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب الإحسان إلى المماليك، برقم (٣٦٩١)، من حديث أبي بكر رضي الله عنه، وفيه فرقد السبخي، قال الترمذي: «حديث غريب، وقد تكلم أيوب السختياني وغير واحد في فرقد السبخي من قبل حفظه»، وضعفه أيضا العراقي والبوصيري. انظر: المغني عن حمل الأسفار (١/ ٦٨٣)، مصباح الزجاجة (٤/ ١٠٨)، خلاصة الكلام في تخريج أحاديث بلوغ المرام ص١٢٥٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (ملك) ص٨٨٢.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٦٠٧٩) (٣/ ٥٠٢)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حق المملوك، برقم (٥١٦٢، ٥١٦٣)، من حديث رافع بن مكيث الجهني رضي الله عنه، وضعفه العراقي والألباني، فيه راو مجهول، وآخر مبهم. انظر: مسند الإمام أحمد (٢٥/ ٤٨٧)، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٢/ ٢٠٨) (٧٩٤)، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٤/ ١٥٧٥).

(٤) مجمع الأمثال (١/ ٣٦٧).

(٥) انظر: المغرب في ترتيب المعرب (٢/ ٢٧٤).

(٦) الخَوَل: ما أعطاك الله تعالى من النَعَم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية. انظر: الصحاح (خ و ل) (٤/ ١٦٩٠)، القاموس المحيط (خ ا ل)، ص٩٩٦.

(٧) الخشْف: بخاء مثلثة، ولد الظبي أولَ ما يولد، أو أولَ مشيه. القاموس المحيط، (خ ش ف)، ص٨٠٥.

وناقةٌ مِلاكُ الإبل: إذا كانت الإبل تتبعها، وهذا مِلْك يدي، وله مَلَكُوْت العراق: أي عزه وسلطانه، وخَلِّ عن مِلْك الطريق: أي وسطه، وما تمالك فلان: أي لم يستطع أن يحبس نفسه، وما له مَلاك: أي لا يتماسك[(١)].

الفرع الثاني: المَلَكة في الاصطلاح:

وفيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: تعريف الملكة اصطلاحا.

المسألة الثانية: مصدر مصطلح (الملكة).

المسألة الثالثة: موضوع الملكة.

المسألة الأولى: تعريف الملكة اصطلاحا:

الملكة مصطلح فلسفي الأصل[(٢)]، مشترك بين معنيين[(٣)]:

أحدهما: الصفة الراسخة في النفس[(٤)].

---

(١) انظر مادة (م ل ك) في: العين (٥/ ٣٨٠)، تهذيب اللغة (١٠/ ٢٦٩)، أساس البلاغة (٢/ ٢٢٧)، مقاييس اللغة (٥/ ٣٥١)، الصحاح (٤/ ١٦١١)، المحكم (٧/ ٤٤)، المخصص (١/ ٣٢٣)، لسان العرب (١٠/ ٤٩٢)، القاموس المحيط ص٩٥٤، المصباح المنير ص٤٧٤، تاج العروس (٢٧/ ٣٤٦).

(٢) انظر: المسألة الثانية من هذا الفرع: مصدر مصطلح الملكة، ص٤١.

(٣) انظر: الكليات ص٨٥٦، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢/ ١١٨٩)، المعجم الوسيط (ملك) (٢/ ٨٨٦).

(٤) انظر: التعريفات ص٢٢٩، الكليات ص٣٧٤، التوقيف على مهمات التعاريف، ص٦٧٥، كشف الظنون (١/ ٣٥)، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (٣/ ٢٢٨)،=

وذلك أن النفس إذا فعلت فعلاً ما صار لها كيفية نفسانية تسمى: حالا، ومن شأن الحال أن يكون سريع الزوال، فإذا تكرر الفعل ومارسته النفس حتى رسخت تلك الكيفية وصارت بطيئة الزوال قيل لها: مَلَكَة[١].

ومثال ذلك: طالب علم النحو يتعلم قواعده ويتدرّب على التزامه في منطقه ويحاول إصابة الإعراب في حديثه وكتابه، فإذا ما استمر في ذلك وداوم تكراره صار النطق على الوجه العربي الصحيح ملكة مستقرة له، لا يحتاج فيها إلى تذكّر القواعد، بل يجري على لسانه سهلا حاضرا بلا تكلف.

ومن ذلك: الملكة التي تكون لنقّاد المحدثين من دوام نظرهم في متون الأحاديث وأسانيدها، فيكون لأحدهم بصيرة يميز بها السقيم من الحديث، ولو لم يقف له على علة معينة أو ضعف ظاهر، يقول ابن دقيق العيد -رحمه الله-: «أهل الحديث كثيرا ما يحكمون بذلك[٢] باعتبار أمور ترجع إلى المروي وألفاظ الحديث، وحاصله يرجع إلى أنه حصلت لهم لكثرة محاولة ألفاظ الرسول ﷺ... ملكة يعرفون بها ما

=المعجم الوسيط (الموضع السابق)، معجم لغة الفقهاء ص٤٥٩، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢/ ١٣٩٦)، التقرير والتحبير (١/ ١٨)، (٢/ ٢٤٢)، التحبير شرح التحرير (١/ ٢٦٢)، تيسير التحرير (١/ ١١)، غاية الوصول في شرح لب الأصول ص١٥٥، حاشية العطار على شرح الجلال المحلي (٢/ ١٧٤، ٤٢١)، شرح نخبة الفكر للقاري ص٢٤٧.

(١) انظر: التعريفات (الموضع السابق)، الكليات (الموضع السابق)، جامع العلوم (الموضع السابق).

(٢) أي: يحكمون على الحديث بالوضع.

يجوز أن يكون من ألفاظ النبي ﷺ وما لا يجوز أن يكون من ألفاظه»[(١)].

وهذا يجري في كل المهارات والعلوم التي لها جانب تطبيقي، كالحساب والطب، وكالرياضات البدنية، ويجري أيضا في المهن والحرف، كالنجارة والحدادة، وبه أيضا تكتسب الأخلاق الحميدة، كما يجري في الأفعال التي يزاولها الإنسان في حياته ويحتاج في بدء اكتسابها إلى دُربة وتمرين، كقيادة السيارة والسباحة والكتابة بالحاسب الآلي، فإنه في أول تعلمه لها يستطيع الإتيان بها لكن بعناءٍ وتذكُّر، ثم تصبح ملكات قارة.

ويصف هذه الحقيقة نجم الدين الطوفي فيقول: «من المعلوم بالوجدان أن النفوس يصير لها فيما تعانيه من العلوم والحرف ملكات قارة فيها، تدرك بها الأحكام العارضة في تلك العلوم والحرف... ويسمي ذلك أهل الصناعات وغيرهم: دُربة، وأهل التصوف: ذوقا، وأهل الفلسفة ونحوهم: مَلَكَة.

ومثال ذلك: الدلّالون في الأسواق قد صار لهم دُربة بمعرفة قيم الأشياء؛ لكثرة دورانها على أيديهم ومعاناتهم، حتى صاروا أهل خبرة

---

(١) الاقتراح في بيان الاصطلاح ص٢٥، وانظر: معرفة علوم الحديث (١/ ١١٣)، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٣٨٢)، جامع العلوم والحكم (٢/ ١٠٥- ١٠٧)، النكت على مقدمة ابن الصلاح للزركشي (٢/ ٢٦٤)، المقنع في علوم الحديث (١/ ٢٣٩)، فتح المغيث (٣/ ٣٩)، نزهة النظر ص٦٨، الملكة النقدية عند المحدثين وكيفية بنائها، للدكتور/ عبدالجبار سعيد، في مجلة الزرقاء للعلوم والدراسات، المجلد الثامن، العدد الأول ص٢٣-٤١.

يُرجع إليهم شرعا في قيم الأشياء، فيركب أحدهم الفرس فيسوقه أو يراه رؤيةً مجرّدة، أو يأخذ الثوب أو غيره من الأعيان على حسب ما هو دلّال فيه فيقول: هذا يساوي كذا، أو قيمته كذا، فلا يخطئ بحبة زيادة ولا نقصا»[(١)].

ويربط بدر الدين الزركشي بين الملكة وقاعدة عقلية هي (الفرق بين العلم بالشيء والعلم بالعلم بالشيء)، و(الفرق بين حضور الشيء وحضور تذكّره)، فقد يكون الشيء حاضرا ولا يحضرنا تذكره، ومثال ذلك: ملكة الكتابة، فالكتابة تتوقف على العلم بكيفية التركيب بين الحروف وترتيبها، ثم إنها تكثر وتتكرر حتى تصير ملكة للنفس، فيكتب الكاتب ولا يستحضر في ذهنه رسم الحروف ورتّبها، وفي الحقيقة قد حصل ذلك الرسم والترتيب ولكن لم يحضره تذكّره[(٢)].

ويُعرف الشيخ الطاهر بن عاشور -رحمه الله- الملكة، مبينا أن تحصيلها هو القصد من تعلّم جميع العلوم فيقول: «ما القصد من كل علم إلا إيجاد الملكة التي استُخدم لإصلاحها، ونعني بالملكة: أن يصير العمل بتعليمات العلم كسجية للمتعلم لا يحتاج معها إلى مشايعة القواعد إياه»[(٣)].

فالملكة مؤلّفة من أمرين: معرفةٌ بأمرٍ ما، ورسوخٌ في تلك المعرفة، ويظهر أثر ذلك في قدرة صاحب الملكة على الفعل على وجه من اليسر

---

(١) شرح مختصر الروضة (٣/ ١٩٢).
(٢) انظر: المنثور (٣/ ١٢٩).
(٣) أليس الصبح بقريب ص١٥٧.

والسهولة والطمأنينة والثقة؛ لكون الفعل يصدر عنه عفوا كالطبيعة والسجية، كما أن الفعل يصدر منه على وجه صحيح؛ إذ لا معنى لسهولة الفعل مالم يأت على الوجه الصحيح، ويكون صاحب الملكة قادرا على التصرف في الأحوال المتغيرة، قادرا على الإبداع والابتكار، ذا دقة واطّراد يسلم به من التناقض والتخبط.

والملكة بهذا المعنى تقابل ما يعرف في علم النفس التربوي بـ(المهارة)، التي تُعرّف بأنها: القدرة على القيام بنشاط عقلي أو انفعالي أو حركي أو جميع ذلك، ويتطلب تعلمها أو اكتسابها السهولة والدقة واقتصاد الوقت في أدائها[(١)].

وتعَرَّف أيضا بأنها: براعة تنمو بالتعلم، وقد تكون حركية أو لفظية أو عقلية أو مزيجا من أكثر من نوع[(٢)].

وللمهارة في بحوث علم النفس التربوي خصائص نجدها بارزة في المهارة الفقهية (الملكة)، فمن خصائص المهارة[(٣)]:

- أنها مزيج مركب من عناصر عدة، فهي تتضمن معارف ومعلومات، وقدرات عقلية، وقد تحوي عددا من المهارات الفرعية الجزئية التي تتصف بالتكامل فيما بينها، وقد يبلغ الامتزاج بين هذه العناصر مبلغ التعقيد، بحيث يختلف الخبراء في وصف الطبيعة الدقيقة للمهارة.

---

(١) سيكولوجية المهارات ص١٥.

(٢) سيكولوجية المهارات ص١٦، وينظر: علم النفس التربوي ص٦٥٧، تعليم التفكير ومهاراته ص٢٧٧.

(٣) انظر: علم النفس التربوي ص٦٥٨-٦٦١، سيكولوجية المهارات ص٢٣-٣٢، تعليم التفكير ومهاراته ص٢٧٩.

- أنها تكتسب بالجمع بين المعرفة النظرية والممارسة والتدريب.
- أن صاحب المهارة يستطيع القيام بها بتلقائية وعفوية (الدقة مع السرعة).
- قدرة صاحب المهارة على أدائها حتى في الأحوال الصعبة والمتغيرة.
- ثقة صاحب المهارة بأدائه، ونقص مشاعر التردد والتوتر.
- زيادة المرونة في الأداء، والقدرة على توقع النتائج؛ نتيجة للتأهب للظروف أوالشروط أو المواقف المتغيرة، ونقص الشعور بالمفاجأة أثناء الأداء.
- النمو المتدرج، فالمتعلم يكتسبها على مر الوقت، فيبدأ وهو قليل المهارة، ويرتقي شيئا فشيئا، في نموٍ لا يبدو جليا إلا عند المقارنة بين حال المتعلم في بدء التعلم والتمرن وحاله بعد وقت طويل من التعلم.

ويوضح هذا النمو المتدرج الذي تتسم به الملكة: مستويات الأهداف المهارية، وهي سبع مستويات، ترتقي من الأدنى إلى الأعلى:

فالمستوى الأول: مستوى الإدراك، وهو تصور المتدرب للمهارة تصورا نظريا صحيحا.

والمستوى الثاني: التهيؤ، وهو الاستعداد النفسي للمتعلم لأداء المهارة.

والمستوى الثالث: الاستجابة الموجهة، وهي المرحلة الأولى من

ممارسة المهارة، وتتسم باعتماد أداء المتعلم للمهارة على التقليد والتكرار والمحاولة والخطأ.

والمستوى الرابع: الاستجابة الآلية، وهي أن يؤدي المتعلم المهارة بصورة اعتيادية فيها نوع من الثقة والجرأة.

والمستوى الخامس: الاستجابة المركّبة، وهي أداء المهارة بثقة وجرأة -كالمستوى السابق- مع دقة تامة ومهارة عالية وبأسرع وقت وأقل جهد.

والمستوى السادس: التكيّف، وهي أداء المهارة على النحو الموصوف آنفا، مع القدرة على تعديل نمط المهارة بحسب ما يقتضيه تغير الموقف.

والمستوى السابع: الإبداع، وهو -مع ما سبق- قدرة المتعلم على الابتكار وتطوير المهارة[(١)].

وإلى هذا، فقد عُني الباحثون النفسيون بتحليل المهارة إلى مكوناتها الأساسية، ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى هذا التحليل لما فيها من تفسير لعناصر المهارات (الملكات) الفقهية.

فالمهارة تتألف من مكونات أربعة، هي:

- **المكون المعرفي**: لكل مهارة تعليمات وشروط يتوقف إتقان

---

(١) انظر: المنهج أسسه ومكوناته ص١٢٠-١٢٣، استراتيجيات التدريس في القرن الحادي والعشرين ص٧٤-٧٩، ويُنظر: التعليم والتعلم وعلم النفس التربوي ص١٦٤، المنهج المدرسي المعاصر ص١٢٣-١٢٦.

المهارة على العلم بها، فالمكون المعرفي للمهارة هو دراية المتعلم بتلك المعلومات.

- **المكون الإدراكي**: وهو قدرة المتعلم على توجيه انتباهه نحو المؤثرات المختلفة، وإدراكها على نحو جيد، وتمييزها عن غيرها.
- **المكون التنسيقي**: وهو قدرة المتعلم على التنسيق بين المؤثرات الخارجية وبين استجاباته لها حتى تكون متآزرة متلائمة.
- **المكون الشخصي**: وهي الخصائص الشخصية المؤثرة في أداء المهارة، كالقدرة على الاسترخاء والاحتفاظ بالهدوء عند الاستثارة، وكالجُرأة والإقدام على المخاطرة[(١)].

ومناسبة المعنى الاصطلاحي للمعنى اللغوي ظاهرة؛ فالملكة في أصل الوضع اللغوي هي امتلاك الشيء، وامتلاك الشيء يتضمن استقراره بيد مالكه وتمكنه من التصرف فيه، ولا شك أن من اتصف بصفة راسخة فهو مالك لها.

وهذا المعنى للملكة هو المستعمل عند الفقهاء والأصوليين المتأخرين، وهو المقصود في هذا البحث.

وأما المعنى الآخر للملكة فهو: ما يقابل العدم، والملكة بهذا المعنى: هي الاستعداد والقابلية، فيعرفونها بأنها: كل معنى وجودي أمكن أن يكون ثابتا للشيء، والعدمُ المقابل له: ارتفاع هذه الملكة[(٢)].

---

(١) انظر: علم النفس التربوي ص٦٦٢-٦٦٧، سيكولوجية المهارات ص٣٣-٣٦.

(٢) انظر: غاية المرام في علم الكلام ص٥١، التدمرية بتحقيق د. محمد السعوي ص١٥٣=

وبعبارة أخرى: القدرة على الفعل أوالترك.

فيقال مثلا: الحيوان له ملكة السمع والبصر، أي أنه قابل لهذا الصفة، بخلاف الحجر فهو غير قابل لها.

المسألة الثانية: مصدر مصطلح (الملكة):

مع صحة هذا الاسم (الملكة) وأصالته في اللغة، فإن استعماله في هذا المعنى المشار إليه ليس استعمالا مأثورا عن العرب، ولا من استعمال الشرع في نصوص الكتاب والسنة، لكنه اصطلاح حادث، استعمله أوّلا أصحاب العلوم العقلية، ثم نفذ إلى العلوم الشرعية ماراً من علم المنطق، فشاع في كلام المتأخرين، واستعملوه في كتبهم وشروحهم، ولا سيما كتب أصول الفقه ومصطلح الحديث وغيرها؛ ومما يدل على ذلك:

- خلو المعاجم اللغوية من هذا المعنى، مع توسّعها واستيعابها الاستعمالات والدلالات والاشتقاقات[(١)].
- عدم وروده على ألسنة المتقدمين من العلماء، مع تعرضهم لمدلوله في مقامات عدة، كحديثهم عن الاجتهاد وشروط المفتي والقاضي وصفة التعليم والمعلم ونعتهم من يترجمون له، وإنما كانوا يعبرون عن هذا المعنى بكلمات أخر ستأتي إن شاء الله[(٢)]،

=(حاشية)، المعجم الفلسفي، ص١٩٢، برقم (١٠٠٠)، الكليات ص٨٥٦، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢/ ١١٨٩)، المعجم الوسيط (ملك) (٢/ ٨٨٦).

(١) انظر ما سبق في التعريف اللغوي ص٣١.

(٢) انظر: المطلب الثاني من المبحث الثاني من هذا الفصل: (الكلمات المرادفة للملكة الفقهية في لسان السلف والعلماء) ص٥٦.

فلم أقف على هذه الكلمة فيما رجعت إليه من كتب الأصول والحديث والتراجم المتقدمة زمناً[(١)]، ثم عزّزت ذلك بالبحث الإلكتروني[(٢)]، ومن أقدم من وجدته استعمل هذه الكلمة: محمد ابن زكريا الرازي (ت: ٣١٣هـ)[(٣)]، ومسكويه (ت: ٤٢١هـ)[(٤)]، وابن سينا (٤٢٨هـ)[(٥)]، والغزالي (ت: ٥٠٥هـ)[(٦)]، وابن باجه

---

(١) مما سيأتي بيانه في قائمة مراجع البحث.

(٢) عن كلمة (ملكة، الملكة)، في برنامج جامع الفقه الإسلامي إنتاج شركة حرف، والمكتبة الشاملة (الإصدار ٣.٤٨).

(٣) في رسائل فلسفية، ص٢٠.
ومحمد بن زكريا الرازي: طبيب فيلسوف شهير، تولى الإشراف على بيمارستان الري، ثم بيمارستان بغداد، وكان كثير التصنيف، ذا مروءة وإحسان إلى المرضى. انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٥٤)، الأعلام (٦/ ١٣٠).

(٤) في تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ص٢٩، ٤١، ١٤٣.
ومسكويه هو: أحمد بن محمد بن يعقوب، اشتغل بالفلسفة والكيمياء، ثم بالتاريخ والأدب والإنشاء، كان قيما على خزانة كتب ابن العميد، ثم كان كاتبا لبني بويه، من مؤلفاته: تجارب الأمم، وتهذيب الأخلاق. انظر: معجم الأدباء (٢/ ٤٩٤- ٤٩٥)، الأعلام (١/ ٢١١).

(٥) في القانون في الطب (١/ ١١٥).
وابن سينا: هو الحسين بن عبدالله بن الحسن بن علي بن سينا، الملقب بالرئيس، نبغ في الطب والعلوم العقلية صغيرا، وفاق معلميه، وكان نادرة زمانه علما وذكاء، له قريب من مائة مصنف، منها: القانون، والشفاء، والنجاة، قال الذهبي: هو رأس الفلاسفة الإسلامية، لم يأت بعد الفارابي مثله، كفره الغزالي في المنقذ من الضلال. انظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٥٧-١٦٢)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٣١-٥٣٧)، الأعلام (٢/ ٢٤١-٢٤٢).

(٦) في كتبه، منها: معيار العلم، ص٢٤٧، ٣٢٠.
والغزالي هو: محمد بن محمد بن محمد، أبو حامد الطوسي الشافعي، الملقب بحجة الإسلام، كان رأسا في علم الفقه والأصول والكلام والتصوف، من كتبه: إحياء علوم الدين، والمستصفى، وشفاء الغليل، وتهافت الفلاسفة، وله في الفقه: البسيط=

(ت: ٥٣٣هـ)[١]، وابن رشد الحفيد (ت: ٥٩٥هـ)[٢]، وهؤلاء جميعا فلاسفة أو لهم استمداد من الفلاسفة، ثم انتشر بعد ذلك، كما سيأتي.

- أن جماعة من المؤلفين في التعريفات الاصطلاحية نسب هذا الاصطلاح إلى (الحكماء) أو المنطقيين[٣].

غير أن حداثة هذا الاصطلاح لا تقدح فيه ولا تعيبه، بل هو مصطلح مقبول سائغ؛ لبراءته من منافاة شيء من مقررات الكتاب والسنة، وموافقته لسَنن اللغة، ومطابقته للواقع؛ فكان مصطلحا مقبولا كسائر المصطلحات الحادثة في العلوم الإسلامية[٤].

=والوسيط والوجيز. انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٣٥٣)، طبقات الشافعية الكبرى (٤/ ١٠١)، الأعلام (٧/ ٢٢).

(١) في: رسائل فلسفية ص٤، ٥.
وابن باجه: هو محمد بن يحيى بن الصائغ التجيبي السرقسطي، أبو بكر، فيلسوف طبيب شاعر، عنه أخذ ابن رشد الحفيد. انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٥١٦، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٩٣)، هدية العارفين (٢/ ٨٧).

(٢) في كتبه، منها تلخيص الخطابة ص٦.
وابن رشد: هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد القرطبي المالكي، الشهير بالحفيد، فيلسوف فقيه طبيب، من مؤلفاته: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، والضروري في أصول الفقه، وبداية المجتهد، وتهافت التهافت (في الرد على الغزالي). انظر: الديباج المذهب ص٢٨٤، شذرات الذهب (٤/ ٣٢٠).

(٣) انظر: جامع العلوم في اصطلاحات الفنون (٣/ ٢٢٨)، فقد عزا هذا المصطلح إلى (الحكماء)، وهم في عرفهم: الفلاسفة، وفي كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (١/ ٧٣١) نسب هذا المصطلح إلى العلوم العقلية، وكذلك في الكليات ص٣٧٤ عزاه إلى عرف أهل المنطق، وفي شرح مختصر الروضة للطوفي (٣/ ١٩٢) أضافه إلى أهل الفلسفة.

(٤) انظر: الصياغة الفقهية ص٢٥٩-٢٦٥، ضوابط قبول المصطلحات العقدية والفكرية عند أهل السنة والجماعة ص١٣٠، ٢٩٩، ٣٩٢.

المسألة الثالثة: موضوع الملكة:

إن موضوع الملكة والمجال الذي تنشأ فيه هو: المهارات والسلوك والأفعال والتصرفات.

فتكرار هذه الأمور يُصيّرها صفة راسخة في النفس، تفعلها بيُسر وتلقائية، بلا تكلّف ولا استحضار.

وبهذا يمكن التمييز بين الملكة وبين مصطلحين آخرين مشابهين لها، هما: الحفظ، والاعتقاد.

فهذه الكلمات الثلاث (الملكة، الحفظ، الاعتقاد) تجتمع في دلالتها على رسوخ أمرٍ ما في الذهن، لكنها تختلف في صفة ذلك الرسوخ.

فإن كان رسوخَ فعلٍ وسلوك كان ملكة.

وإن كان رسوخ معرفة نظرية مجرّدة كان حفظا.

وإن كان رسوخ تصديق ويقين كان اعتقادا.

وعلى هذا فرسوخ العلوم في النفس قد يوصف بهذه الصفات الثلاثة بأنظار مختلفة، فرسوخ قواعد علم النحو -مثلا- في نفس النحوي يُعدّ حفظا من جهة كونه معلومات نظرية ثابتة في الحافظة، ويُسمى ملكة إذا كان قادرا على النطق العربي الصحيح بلا تكلف، ويُسمى اعتقادا من جهة كونه يقينا راسخا بصحة هذه القواعد ومطابقتها للسان العربي.

هذا ما يستفاد من استعمال العلماء لهذا المصطلح، فإنا نراهم يُطلقون الملكة بإزاء ما هو سلوك وتصرف، سواء أكان هذا السلوك والتصرّف بحركة العقل أو النفس أو الجوارح، فهم يُعبّرون عن

المهارات العلمية بوصفها (ملكات)، كمهارات الاجتهاد الفقهي وتمييز الحديث الموضوع وغير ذلك مما سبقت الإشارة إليه قريبا وما سيأتي، ويطلقون أيضا اسم (الملكة) على مهارة أصحاب المهن في مهنهم[١]، ويُعرّفون العدالة -مثلا- بأنها ملكة تحمل على ملازمة التقوى والمروءة[٢]، ويُعرفون الأخلاق بكونها ملكات[٣]، ويُطلقون اسم العلم -كعلم الفقه أو الحساب- على الملكة الحاصلة من تكرّر ذلك العلم على ذهن متعلِّمه حتى أصبح العمل بمقتضيات ذلك العلم أمرا سهلا ميسورا[٤]، وكل هذه الاستعمالات تلتقي في كون مجال الملكة ومحلّها هو التصرفات والسلوك.

المطلب الثاني: التعريف بالفقه:

الفِقْهُ في اللغة: الفَهْمُ، والفِطْنة، والعلم بالشيء.

والفعل المشتق منه:

أ - فَقِهَ يَفْقَهُ أي فَهِم.

ب - وفَقُهَ يَفْقُهُ إذا صار الفقه سجية له، أي صار فقيها.

---

(١) انظر: شرح مختصر الروضة (٣/ ١٩٢).

(٢) انظر: نزهة النظر شرح نخبة الفكر ص٣٨، فتح المغيث (١/ ٢٨)، شرح نخبة الفكر للقاري ص٢٤٧.

(٣) انظر: مختصر منهج القاصدين ص١٩٢.

(٤) فالعلم يطلق تارة على مجموع المسائل، وتارة على التصديقات بتلك المسائل، وتارة على الملكة الحاصلة من تكرار تلك التصديقات. انظر: كشف الظنون (١/ ٨)، أبجد العلوم (١/ ٢٣، ٣٨، ٤٢).

ج - وفَقَهَ يَفْقُه إذا غلب غيره في الفقه، يقال: فاقَهَهُ -أي باحَثَهُ في العلم- ففَقَهَه[١].

والمصدر: الفِقْه، والفَقَاهَة[٢].

وأما في العرف الإسلامي فقد غلب على اسم الفقه استعماله في العلم بالدين وفهمه خاصة؛ ففهم علوم الدين هو الفقه عند المسلمين، والعالم العامل بها هو الفقيه عندهم،هذا هو الشائع لدى السلف -رحمهم الله-[٣]، ومما جاء عنهم في هذا المعنى: ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ قالوا بلى. قال: من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمّنهم من مكر الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه[٤].

وقول الحسن البصري -رحمه الله-: إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المواظب على عبادة ربه[٥].

---

(١) في (أصول الفقه، الحد والموضوع والغاية) للدكتور/ عبدالوهاب الباحسين قوله: لم نجد في المعاجم اللغوية ما يفيد أن (فَقَه) بفتح القاف: سبق غيره في الفهم. وتَبِعةُ ذلك تقع على الأصوليين الذين ذكروا ذلك. اهـ. ص٤٨، لكن يؤخذ هذا المعنى مما ذكره صاحب القاموس المحيط بقوله: «وفاقَهَهُ: باحَثَهُ في العلم، ففَقَهَه -كنصره-: غلبه فيه».

(٢) انظر مادة (ف ق ه) في: العين (٣/ ٣٧٠)، تهذيب اللغة (٥/ ٤٠٤)، مقاييس اللغة (٤/ ٤٤٢)، الصحاح (٦/ ٢٢٤٣)، لسان العرب (١٣/ ٥٢٢)، القاموس المحيط ص١٢٥٠، الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٩).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (١/ ١٢٠-١٢٤)، شرح صحيح مسلم للنووي (٢/ ٣٣)، فتح الباري (١/ ١٦٥)، البحر المحيط (١/ ٢٣)، ترتيب العلوم ص١٥٩، المدخل المفصل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل ص٤١-٤٣، المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي، ص٣٣.

(٤) رواه الدارمي في سننه برقم (٣٠٥).

(٥) رواه الدارمي في سننه برقم (٣٠٢). وانظر كلمات أخر في هذا المعنى في: سنن=

ونتيجةً لتفرّع العلوم الإسلامية وتنوعها: ما بين علوم حافظة لنصوص الوحي، وعلوم مستنبَطة ومستمَدة منها، وعلوم خادمة لها؛ تمايزت تلك العلوم، واختص كل علم منها باسم، وانتدب إلى العناية بكل علم منها طائفة، وهنا أصبح اسم (الفقه) مختصا بالعلم بأحكام الشريعة العملية، من أحكام العبادات والبيوع والأقضية ونحوها، وأصبح (الفقيه) هو العالم بتلك الأحكام، ولا يزال هذا الاصطلاح هو الشائع بين المسلمين، وهو المعنيّ هنا في (الملكة الفقهية).

والفقه على هذا الاصطلاح يستعمل على وجهين[(١)]:

الوجه الأول: إطلاق اسم الفقه على العلم بالأحكام الشرعية العملية، فالفقه على هذا هو: العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية[(٢)].

وهذا التعريف للفقه بأنه العلم موافق للتعريف اللغوي للفقه، الذي سبق ذكره.

والوجه الآخر: إطلاق اسم الفقه على الأحكام الشرعية نفسها، والفقه بهذا الاعتبار هو: الأحكام الشرعية الفرعية[(٣)].

=الدارمي، الموضع السابق، وجامع بيان العلم وفضله، باب من يستحق أن يسمى فقيهاً أو عالما حقيقة لا مجازا (٢/ ٤٣- ٤٩).

(١) انظر: أصول الفقه، الحد والموضوع والغاية ص٥٦- ٥٨.

(٢) انظر: نهاية السول (١/ ٢٢)، جمع الجوامع مع شرح المحلي (١/ ٤٣).
وقد عُرِّفَ الفقه تعريفات كثيرة، ونوقشت تلك التعريفات، وهذا التعريف هو أشهر التعريفات وأسلمها. انظر: أصول الفقه، الحد والموضوع والغاية ص٦٣، البحر المحيط (١/ ٢١).

(٣) انظر: أصول الفقه لابن مفلح (١/ ١١)، أصول الفقه، الحد والموضوع والغاية ص٥٧.

وهذا الاستعمال الثاني -وإن كان استعمالا مجازيا أُطلق فيه الفقه على ثمرته ونتيجته[(١)]- هو استعمال شرعي محفوظ، فقد جاء عليه قول النبي ﷺ «رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[(٢)].

(١) انظر: البحر المحيط (١/ ٢٣).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٥/ ١٨٣) برقم (٢١٥٩٠) وأبو داود في سننه، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم، برقم (٣٦٦٠)، والترمذي في سننه، أبواب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، برقم (٢٦٥٦)، وابن ماجه في سننه، كتاب السنة، باب من بلغ علما، برقم (٢٣٠) من حديث زيد بن ثابت، وصححه البوصيري والألباني. انظر: مصباح الزجاجة (١/ ٣٢)، سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٦٧٠).